المحور الأول: أهمية القرآن وعلومه في الدراسات اللغوية والأدبية (تعريف القرآن والوحي والنبوة والمعجزة).

لقد تحدث أهل التخصص في الدراسات المتعلقة بعلوم القرآن الكريم مثل غيرهم من التخصصات الأخرى عن مجموعة المصطلحات الأساسية التي تشكل عصب هذا التخصص، وبات من البدهي معرفة الباحثين أو الدارسين بها، لكونها مفاتيح في هذا العلم وجب علينا استيعابها والتحقيق في مفاهيمها، شأنه في ذلك شأن العلوم الأخرى. لذلك ارتأينا أن نجعل هذا المدخل مقدمة مصطلحية - تبحث في شأن المصطلحات- تضيء الطريق أمام القارئ أو المتلقي للإحاطة بمصطلحات هذا العلم، ومن ثمة بمختلف مسائله أو قضاياه علماً. وأول هذه المصطلحات ما تواضع عليه أهل التخصص في هذا العلم، ألا وهو (**القرآن**).

1 – مفهوم القرآن في اللغة والاصطلاح:

1 – 1 – لغة:

اختلف أهل اللغة العربية في أصل اشتقاق مصطلح (**القرآن**)؛ فذهب بعض الباحثين إلى أن هذا الأخير مصدر مرادف لكلمة (**القراءة**) استنادا إلى قوله تعالى: « إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه». وذهب آخرون إلى أنه مأخوذ من (**القرء**) بفتح القاف، ويعني الجمع. ومنه تقول العرب: « قرأ الماء في الحوض، أي جمعه فيه». ومنه سميت القرية قرية لأنها الموضع من الأرض الذي يجتمع فيه فريق من الناس. وقيل إنه مشتق من الاقتران، لأن آيات القرآن وسوره يقترن بعضها ببعض اقترانا وثيقا يتجلّى فيه التماسك والانسجام.

ولعل الشيء الملاحظ على المفهوم اللغوي لمصطلح (**القرآن**) هو تعدد مشاربه اللغوية، فمهما كان هذا الاختلاف بين علماء اللغة العربية في مصدر هذا المصطلح إلا أن المعاني الثلاثة (القراءة والجمع والاقتران) تتوافر جميعها في هذا المصطلح؛ فالقرآن أنزل للقراءة وجمع الله فيه حقائق البشرية جمعاء، مقترنة بعضها مع بعض كاقتران سوره مع آياته، وهي – لا شك – مفاهيم لغوية واسعة جمعها القرآن وحده فحسب. ومن هنا نستطيع أن نتجاوز ذلك الخلاف اللغوي في أصل اشتقاق مصطلح (**القرآن**).

1 – 2 – اصطلاحا: وإذا كان أهل اللغة العربية قد توسعوا في ردّ مصطلح (**القرآن**) إلى الأصل المناسب، واختلفوا من بعد ذلك في هذا الأخير فإن الباحثين في علوم القرآن لم يصل بهم الخلاف إلى هذا الحدّ، بل ضبطوا

المفهوم الاصطلاحي الشرعي للقرآن على النحو الآتي: « القرآن هو كلام الله تعالى، المنزل على سيّدنا محمد – صلى الله عليه وسلم –، باللفظ العربي، المنقول إلينا بالتواتر، المكتوب في المصاحف، المتعبد بتلاوته، المعجز بأقصر سورة منه، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس».

ويظهر من خلال هذا التعريف المفهوم الشامل للقرآن، لكونه يحتوي على قيود كثيرة تتجلّى فيما يأتي:

1 – كون القرآن كلام الله تعالى، وهو الكلام المكتوب بين دفتيّ المصحف يخرج بهذا القيد كلام الإنس والجن وبقية المخلوقات الأخرى.

2 – المنزل على سيّدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – النبيّ الأمّيّ، ويخرج به الرسالات السماوية والكتب التي أنزلها الله من قبل على عباده المرسلين كالتوراة التي أنزلت على موسى– عليه السلام –، والإنجيل الذي أنزل على عيسى – عليه السلام –، والصحف التي أنزلت على إبراهيم عليه السلام.

3 – وكانت اللغة التي اختارها الله لكتابه الخالد هي اللغة العربية، وذلك لقوله تعالى:« إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون». ولقوله تعالى: « بلسان عربي مبين».

4 – المنقول إلينا بالتواتر، أي منقول جمع غفير عن جمع غفير من المؤمنين الذين لا يعقل تواطؤهم على الكذب، ولا يرقى إلى هذا التواتر شك؛ فقد تناقل المسلمون كتاب الله حفظا في الصدور وتسجيلا في الصحف، تنقله كل أمة في زمانها إلى الأمة التي تليها.

5 – والقرآن كذلك متعبّد بتلاوته، أي أن المؤمن يعبد الله بمجرد تلاوته للقرآن، فإن تلاوته نفسها ضرب من ضروب العبادة، يتقرب بها المسلم من ربّه سبحانه وتعالى.

6 – المعجز بأقصر سورة منه، أي أن القرآن الكريم معجز يعزّ على الإنس والجن والملائكة أن يأتوا بمثله، وذلك لقوله تعالى: « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا».

7 – المبدوء بسورة الفاتحة، ومعناه أن المسلم عندما يفتح المصحف الشريف يفتحه على أول سورة هي سورة الفاتحة، لذلك سمّاها النبي – صلى الله عليه وسلم – (**فاتحة الكتاب**)، وجعل عبادة المسلم كلها تتعلق بها،

فقال: « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، وهي السبع المثاني التي أوتيها، واختص بها لعظمتها، ووردت في آية أخرى: « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم».

8 – المختوم بسورة الناس، أي فهذه السورة هي آخر سورة في المصحف الشريف، وما وقع بين السورتين – بين الفاتحة والناس – من السور والآيات يمثّل كلام الله تعالى ألا وهو القرآن.

وفي تقديرنا يمكن القول إن هذا المفهوم يتسم بالدقة والشمول؛ حيث يتناول كل حقيقة لتعريف القرآن الكريم. لذلك فقد أجمع عليه الباحثون في علوم القرآن.

2 – مفهوم الوحي لغة واصطلاحا:

2 – 1 – لغة:

ذكرت المعاجم العربية القديمة والقواميس الحديثة معاني كثيرة في مصطلح (**الوحي**)، وكلها معان وردت في القرآن الكريم كتاب ربّ العالمين، وهي على النحو الآتي:

أ – اشتق مصدر الوحي من مادة (**وَحَيَ**)، بمعنى أشار بخفة وسرعة. قال محمد رشيد رضا: « ووحي الله تعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة ... وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم».

ب – وتطلق كلمة (**الوحي**) ويراد بها الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل، وهو ما ورد في قول الله تعالى: « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون»، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان سليم الفطرة، وذلك في قول الله تعالى حكاية عن أمّ موسى – عليه السلام –: « وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه».

ج – وتطلق هذه الكلمة (**الوحي**) ويراد بها الوسوسة من الشياطين، وذلك في قوله تعالى: « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم». وكذلك وردت هذه الكلمة بهذا المعنى في قوله تعالى:« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا».

د – وتأتي هذه الكلمة (**الوحي**) وتعني الأمر بالفعل والتنفيذ، وذلك في قوله تعالى:« إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا». فوحي الله للملائكة هو أمرهم بتنفيذ ما ألقي إليهم.

ولعل المعنى الذي نبحث عنه ونريده في مقامنا هذا هو الإعلام الخفي السريع إلى من يوجّه إليه؛ حيث يخفى على غيره، والمقصود به هم الأنبياء، لأن المفهوم اللغوي عام، أي يشمل مفاهيم كثيرة. والمفهوم الاصطلاحي خاص، أي يختار أحد هذه المفاهيم اللغوية، وهو ما يتضح في المفهوم الاصطلاحي.

2 – 2 – اصطلاحا:

والوحي في اصطلاح علوم القرآن هو:« إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، أو هو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين أنه من عند الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة».

وبالرجوع إلى المعنى الأساسي للوحي يظهر الفرق بين هذا الأخير وهو إعلام الله الخفيّ السريع وبين الوحي بمعنى الإلهام؛ فهذا الأخير هو وجدان أو شعور تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو شبيه بوجدان الجوع والعطش. أما الوحي فهو شيء مختلف؛ لأن يقين النفس بأنه من عند الله هو الفارق بينهما. أي مصدر هذا الوجدان.

3 – الفرق بين القرآن والوحي:

من خلال الحديث عن مفهوم كُلٍّ من مصطلحيّ (**القرآن**) من جهة، و(**الوحي**) من جهة أخرى يتضح الفرق أو الحدود العلمية بين المصطلحين؛ فالقرآن هو ضرب من ضروب الوحي الذي أوحاه الله تعالى إلى عبده محمد – صلى الله عليه وسلم – مثلما أوحى إلى أنبيائه من قبل بالكتب السماوية السابقة، وهو ما يجعل القرآن ضربا من ضروب الوحي مثله مثل السنة النبوية. فالوحي إذاً أعمّ من القرآن وأشمل منه، فالوحي يشمل القرآن والسنة والمعاملات والأخلاق وكلّ ما تحدث به المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ونهى عنه وأمر، ويدل عليه حديث **الإحسان** الذي ظهر من خلاله جبريل في صورة رجل آدميّ، وهو الحديث المتواتر الموجود في الصحيحين.

4 – صور الوحي (كيفيات نزول الوحي):

لقد لخّص الله سبحانه وتعالى صور نزول الوحي على أنبيائه المرسلين في آية كريمة واحدة، وذلك في قوله: « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم».لذلك يمكن تفصيل هذه الصور أو الكيفيّات على النحو الآتي:

4 – 1 – الصورة الأولى: هو إلقاء المعنى في القلب، ويعبّر عنه بالنفث في الرُّوعِ – بضمّ الراء –، وهو القلب والخَلَد والخاطر – أي هو كلام يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله؛ فقد أخرج الحاكم و الطبراني في الكبير أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: « إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

4 – 2 – الصورة الثانية: وهو أن يكلّم الله نبيّه من وراء حجاب أو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه، ومثال ذلك تكليم الله تعالى موسى – عليه السلام – في جبل الطور حين كان قافلا من مدين إلى مصر، وبذلك سمّي موسى الكليم انطلاقا من هذه الحادثة، وقد ورد ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى:« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربّ أرني انظر إليك، قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا». وقد وردت هذه الصورة الثانية من الوحي في آيات أُخَرَ ، وهي تخصّ قصة موسى عليه السلام التي تكرّرت كثيرا في سور القرآن الكريم.

4 – 3 – الصورة الثالثة: وهي ما يلقيه الملك المرسل من الله إلى النبي المرسل، فيراه متمثلا بصورة رجل فيسمع منه ويعي عنه ما يقول، وأحسن مثال على ذلك حديث (**الإحسان**) الوارد في الصحيحين، وعلى هذه الكيفية الثالثة جاء أغلب الوحي الذي نزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

5 – الحكمة من نزول القرآن الكريم منجّما(مفرّقا):

هناك مسألة مهمة تحدّث عنها الباحثون في علوم القرآن قديما وحديثا، وخاصة عند المفسرين لكتاب الله عندما وقفوا على شرح بعض الآيات الكريمة التي تدل على نزول القرآن مفرقا بين بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – وانتقاله إلى الرفيق الأعلى؛ إذ تحدثوا عن حكم عظيمة من نزول القرآن منجماً عبر الأحداث والمناسبات طيلة ثلاث وعشرين سنة تقريبا، وتتمثل هذه الحِكم في الأمور الآتية:

5 – 1 – تثبيت قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – أمام أذى المشركين وردّ على اقتراحهم نزول القرآن دفعة واحدة، وهو ما جاء ذكره في القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى: « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا». وتثبيت قلب النبي إنما هو رعاية من الله وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له.

5 – 2 – التلطف بالنبي – صلى الله عليه وسلم – عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، فهو الكتاب الذي لو أنزل على جبل لتصدّع وتفتّت من جلالة الله كما قال تعالى: « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله». فكيف بقلب النبيّ – صلى الله عليه وسلم – الرقيق، هل يستطيع أن يتلقّى القرآن جملة واحدة؟ كلّا . إن مراعاة الله تعالى لضعف نبيّه هو

5 – 3 – التدرج في تشريع الأحكام وفق الحالات والمناسبات لاقتلاع الشرّ والفساد من جذوره اقتلاعا حاسما بطريقة تعالج الأمراض الاجتماعية معالجة حكيمة؛ فالخمر مثلا: مرّ تحريمها بأربع مراحل؛ ففي المرحلة الأولى نزل قوله تعالى: « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا». بينما في المرحلة الثانية فقد نزل قوله تعالى: « يسألونك عن الخمر والميسر فقل فيهما إثم كبير ومنافع للناس». بينما في المرحلة الثالثة فقد نزل قوله تعالى: « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى». وهذه الآية تنهى عن الدخول إلى الصلاة في حالة سُكر... بينما في المرحلة الرابعة جاء التحريم النهائي في قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون». وهذه الآية تشير إلى التحريم النهائي للخمر في كلّ الأحوال. وبعد نزول هذا التحريم النهائي قال بعض الصحابة :« الآن انتهينا. انتهينا». فلو جاء هذا التحريم دفعة واحدة لما انتهت العرب عن شرب الخمر. وهذه المعالجة الحكيمة اقتلعت الخمر من نفوس العرب وعقولهم قبل أن تقتلعها من أيديهم، لأن العرب تقدّس الخمر في حياتها الاجتماعية وفي أشعارها وخطبها وأنسابها، ومن المستحيل أن تترك ذلك بسهولة.

5 – 4 – تسهيل حفظ القرآن على المسلمين وفهمهم له وتدبرهم إياه؛ فمن المعلوم أن العرب كانوا أمّيّين لا يقرأون ولا يكتبون، وذلك لقوله تعالى: « هو الذي بعث في الأمّيّين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ». فاقتضت حكمة الله أن ينزل كتابه منجما ليسهل حفظه على المسلمين والاقتداء بأخلاقه الربانية.

5 – 5 – مسايرة الأحداث والوقائع والتنبيه عليها في حينها أو انحراف نزل بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي اجتنابه في ذلك الوقت والحين. وأحسن مثال على ذلك ما وقع في غزوة حنين؛ فقد جاء القرآن الكريم موضّحا ما وقع في هذه الغزوة من أخطاء: « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن

عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين». ولو أن القرآن نزل دفعة واحدة لما أمكن التنبيه إلى هذا الخطأ في حينه.

5 – 6 – الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه تنزيل من حكيم حميد؛ فقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا أنزلت عليه آية أو آيات يقول: « ضعوها في مكان كذا، من سورة كذا». وهو بشر لا يدري ما تأتي به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان.